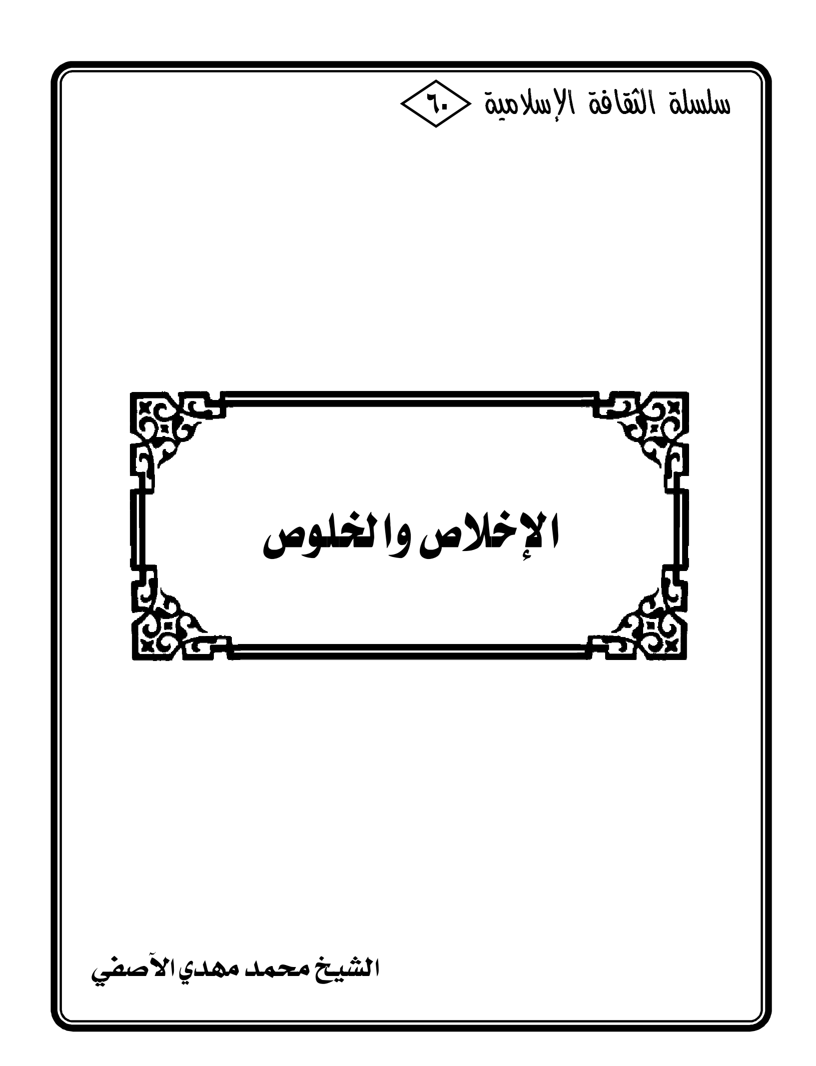


مختارات منتقاة من محاضرات ومؤلفات
الشيخ محمد مهدي الآصفي حفظه الله

اسم الكتاب: .... الإخلاص والخلوص

المؤلف:.. محمّد مهدي الآصفي

الطبعة الأولى: .... ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م

الكمية... ٣٠٠٠ نسخة

المطبعة: ....مطبعة مجمع أهل البيت عليهم السلام النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ﴾

الزمر:١١

﴿وَأَقِيمُــواْ وُجُــوهَكُمْ عِنــدَ كُــلِّ مَــسْجِدٍ وَادْعُــوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾

الأعراف:٢٩

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُــدُوا اللَّــهَ مُخْلِــصِينَ لَــهُ الــدِّينَ حُنَفَاءَ﴾

البيّنة:٥

التقوى والإخلاص

الإخلاص والتقوى وصفان للعمل والفرق بين التقوى والإخلاص: إن التقوى هو ضبط العمل ضمن حدود الله، فلا يتجاوز العمل حدّاً من حدود الله.

والإخلاص تصفية العمل من حيث الغايات فلا يشوب عمل الإنسان غاية غير وجه الله ومرضاته.

وهما كل قيمة العمل، فلا قيمة للعمل من دون التقوى **﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾**[1].

وكذلك لا قيمة للعمل من دون الإخلاص. وقد روي عن رسول الله بطرق صحيحة: «**إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى**».

وكلا النصين الآية الكريمة والحديث الشريف يبدءان بـ(إنما). وإنما في العربية من أقوى أدوات الحصر.

ومعنى الآية: إن الله تعالى يتقبل من الأعمال ما يصدر من المتقين، وأما ما يصدر من غير أهل التقوى فلا يتقبله الله، وهو بمعنى: إن القبول يتم بمقياس التقوى.

وقبول العمل من الله هو كل قيمة العمل. وما لا يتقبله الله من

(١) المائدة: ٢٧.

الأعمال فلا قيمة له.

وأما الحديث الشريف.. فقد رواه الفريقان بأسانيد كثيرة، فيها الصحيحة، عن رسول الله ﷺ بألفاظ مختلفة بعض الاختلاف، وهو أول حديث يرويه محمد بن إسماعيل البخاري في صحيحه[1].

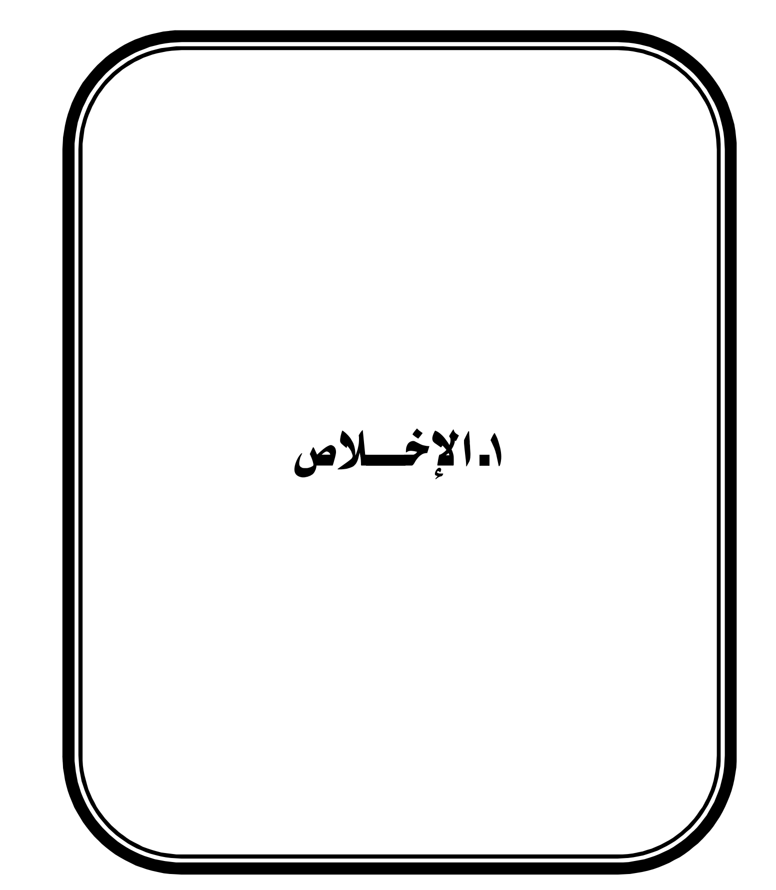
ومعنى الحديث إن قيمة الأعمال عند الله بالنيّات، فما يكون من عمل الإنسان خالصاً لله كان عمله لله، وما كان من عمله لبعض حطام الدنيا كان عمله له. فمن هاجر أو قاتل لله ورسوله كانت هجرته وقتاله لله ولرسوله ومن كانت هجرته وقتاله لبعض حطام الدنيا وزخرفها كانت هجرته وكان قتاله له، وليس له عند الله أجر أو قيمة.

فإن قيمة العمل عند الله حسب نية العبد. فمن خلصت نيته لله في عمله زكى عمله، ومن لم تخلص نيته لله سقطت قيمة عمله.

(١) في مصادر حديث أهل البيت عليهم السلام روى هذا الحديث المجلسي باللفظ التالي: عن رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى. فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه». بحار الأنوار ٦٧: ٢١٠، ٢١١، ٢٤٩.

وهو أول حديث في صحيح البخاري عن رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى. فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه». صحيح البخاري ١: ٤ وأطراف هذا الحديث في كتاب البخاري الأحاديث التالية: الحديث رقم ٥٤ ـ ٢٥٢٩ ٣٨٩٨ ـ ٥٠٧٠ ـ ٦٦٨٩ ـ ٦٩٥٣.

ورواه البيهقي في السنن الكبرى ١: ٤٢، ٢١٥، ٢٩٨، ٢: ١٨٠.



١.الإخلاص

مسلسل الإرادة، النيَة، الشاكلة

ولكي نفهم معنى الإخلاص ينبغي أن نعرف مثلث (الإرادة، والنية، والشاكلة).

فإن فعل الإنسان ليس مثل فعل الحيوان وفعل الآلة.

إن فعل الإنسان ينشأ من الإرادة وإرادته ناشئة من النية، ونيته ناشئة من تركيبته النفسية وتكوينه النفسي.

فصاحب النفس الطيبة الصالحة نيته طيبة صالحة وإذا صلحت وطابت نية الإنسان صلحت إرادته، فلا يريد بأحد شراً ومكراً، وإذا صلحت إرادته صلح عمله.

وصاحب النفس الخبيثة الفاسدة، نيته خبيثة، فإن النية منبعثة عن النفس، فإذا خبثت النفس خبثت نيتها، وإذا صلحت وطابت النفس طابت نيته.

فإذا حذفنا الوسائط في هذه المعادلات المسلسلة الثلاثة نصل إلى هذه النتيجة التي يقررها القرآن الكريم ﴿**قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ**﴾ والمقصود بالشاكلة هنا تكوينه النفسي وباطن نفسه.

وَقَبَلَ أن نفارق هذه النقطة لابد أن نذكر بأمر هام له دخل في

فهم هذا المسلسل.

وهو أنّ هذه المعادلات ليست حتمية ولا تلغي اختيار الإنسان، وإنّما هي اقتضائية لا تخرج الفعل عن حيز الاختيار ولا تلغي اختيار الإنسان.

فإن شاكلة نفس الإنسان ليست تكوينية دائماً وإنما هي مزيجة من التكوين والكسب. والتكوين منها هي الحالة الفطرية السوية الموجودة في كل نفس خلقها الله تعالى، ثم تتكامل نفس الإنسان أو تسقط خلال حركته وحياته وعمله.. والعلاقة بين نفس الإنسان وعمله بالطريقة التي شرحتها تشبه أن تكون من سنخ العلاقة الجدلية التبادلية بين هذين الطرفين أعني (عمل الإنسان ونفسه).

فيكون عمل الإنسان من سنخ شاكلة نفسه حُسناً أو قُبحاً، وهو قوله تعالى، والله أعلم ببصائر كتابه **﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾**[1].

وبالمقابل تكون نفس الإنسان من سنخ عمله حُسْناً أو قبحاً، وهو قوله تعالى: **﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**

(١) الإسراء: ٨٤

*** قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾**[1].

والإنسان هو الذي يزكي نفسه، وهو الذي يدسّها في الأهواء والشهوات، فتكون نفس الإنسان أيضا من سنخ عمله.

والعلاقة بناءً على ذلك بين الإرادة والنفس، بعد إلغاء الوسائط، علاقة تبادلية[2]، يعني أن نفس الإنسان تتأثر بإرادة صاحبها، وإرادته تتأثر بنفس صاحبها.

والآن بعد هذا التوضيح الإجمالي لعلاقة العمل بالنفس، وعلاقة النفس بالعمل نعود لتفصيل الحلقات الثلاثة لهذه العلاقة في تفسير (الإخلاص).

١ ـ الإرادة

بالإرادة يتميز عمل الإنسان عن فعل الحيوان والآلة، ولولا عامل الإرادة والاختيار في حياة الإنسان لكان الإنسان والحيوان والآلة سواء، ولم يكن لابتلاء الإنسان معنى.

والابتلاء من أساسيات حياة الإنسان الفردية والاجتماعية.. ففي حياة الأمم جعل الله الابتلاء، كما جعل الابتلاء في حياة

(١) الشمس: ٧ ـ ١٠.

(٢) وهو الدور الذي يسميه الفلاسفة بالدور الـ(معي) ويقصدون إن كلا من الطرفين معاً يؤثر في الطرف الآخر.

الأفراد، وهو من السنن المطلقة غير المشروطة في حياة الإنسان.

يقول تعالى:

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾[1].

﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾[2].

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾[3].

﴿وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم﴾[4].

والابتلاء في حياة الإنسان هو السلم الذي عليه يرقى الإنسان إلى الله ويتكامل، ولولا الابتلاء لم يتكامل الإنسان.

وإذا نفينا الابتلاء من حياة الإنسان كان شأنه وشأن الحيوان والآلة سواء.

إن عمل (النمل) و(النحل) مهما كان دقيقاً ومتقناً لا يكون سبباً لتكامل النمل والنحل. ولكن عمل المهندس المعماري، لأنه يتقوم بالعلم والإرادة يتكامل ويزداد اتقاناً جيلاً بعد جيل وعاماً

(١) القلم: ١٧.

(٢) الأعراف: ١٦٨.

(٣) محمد: ٣١.

(٤) المائدة: ٤٨.

بعد عام.

منذ خلق الله النحل كان يُنشئ خليته على هذه الهيئة السداسية المتقنة إلى اليوم، ولم يتكامل ولم يتطور عمله خلال هذه الدهور الطويلة.

ولكن عمل المهندس الذي ابتدأ ببدايات معمارية أولية تطور وتكامل إلى الأنماط المعمارية المتطورة اليوم.

والسر في ذلك كله الإرادة والاختيار.

إن النحل والنمل لا يصدران عملهما عن إرادة واختيار، فلا يتكاملان، ولكن الإنسان يصدر عمله عن إرادة واختيار فيتكامل.

إذن عامل الإرادة هو سر تكامل الإنسان وعروجه، وعمل الإنسان ينشأ من عامل الإرادة والاختيار وهذه النقطة هي الحلقة الأولى من هذا المسلسل.

٢ ـ النية

الإرادة من سنخ النية، والنية من مبادئ الإرادة فإذا صلحت النية صلحت الإرادة، وإذا فسدت نيته فسدت إرادته.

إن قيمة العمل عند الناس بحسن الفعل، وعند الله بحسن الفعل والفاعل.

فإذا بنى أحد مستشفى أو مبرّة خيرية كان عند الناس عملاً صالحاً وذا قيمة، بأية نية بناها صاحبها، كان يقصد بها وجه الله تعالى، أم يقصد بها الشهرة والسمعة والتظاهر والرئاء، فهو عمل صالح على كل حال.

ولكن الأمر يختلف في دين الله عن المقاييس التي بأيدي الناس، ففي دين الله يقاس العمل الصالح بحسن الفعل وحسن الفاعل.

ونقصد بحسن الفعل، أن يكون العمل مفيداً، نافعاً من قبيل إنشاء مستشفى أو مسجد أو مدرسة أو عيادة مريض، ونقصد بحسن الفاعل أن تكون غاية صاحب العمل وجه الله، ولا تكون غايته شيء مما يطلبه الناس في هذه المواضع من الشهرة والرئاء والتظاهر وحسن السمعة دون مرضاة الله.

وقيمة العمل هي الحاصل من حجم قيمة العمل في النية. فلو كانت قيمة العمل (الحسن الفعلي) بحد ذاته كبيرة، مثلاً بناء مستشفى كبير أو إنشاء جامع أو جامعة للعلوم، ولكن كانت النية وهي (الحسن الفاعلي) صفراً لم يقصد به صاحبه وجه الله تعالى في شيء مطلقاً، كانت قيمة العمل صفراً، لأن مضروب أي رقم مهما كان كبيراً في الصفر صفر بالضرورة.

ولو كانت قيمة العمل (الحسن الفعلي) قليلة، ولكن كانت قيمة النية كبيرة، كانت قيمة العمل تساوي مضروب النية في حجم العمل.

وهكذا نقيس دائماً قيمة أي عمل بحجم ذلك العمل ونفعه في نية صاحبه.. وعلى هذا المقياس يتم تقدير قيمة العمل.

وقد روي عن أبي الحسن (عليه السلام) عن رسول الله ﷺ: «**لا قول إلا بعمل، ولا قول ولا عمل إلا بالنيّة**».

وعنه (عليه السلام): «**لا حسب إلا بالتواضع، ولا كرم إلا بالتقوى ولا عمل إلا بالنية**».

الأجر بمجرد النيّة

هذا الذي ذكرناه هو القاعدة والأصل، ولكن الله تعالى يرزق عباده الأجر والثواب بالنيّة المجردة عن العمل، فيما إذا نوى العبد وتمنّى، ولكن لم يتوفر له أسباب العمل، وكان صادقاً في نيّته وأمنيته.

عن أبي بصير، عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام):

«**إنّ العبد المؤمن ليقول يا رب ارزقني حتى أفعل كذا وكذا من البرّ ووجوه الخير، فإذا علم الله ذلك منه بصدق نيّة كتب له**

من الأجر مثل ما كتب له لو عمله. إن الله واسع كريم»[1].

وشرط الثواب على النية أن تكون النية صادقة وليست أمنية سطحية ضحلة.

عن أبي عبد الله الصادقعليه السلام: «**إنّ العبد المؤمن ليقول يا رب ارزقني حتى أفعل كذا وكذا من البرّ ووجوه الخير، فإذا علم الله ذلك منه بصدق نيّة كتب له من الأجر مثل ما كتب له لو عمله. إن الله واسع كريم**»[2].

وعن أبي الحسن الرضاعليه السلام قال: «**إذا كان يوم القيامة أوقف المؤمن بين يديه فيكون هو الذي يلي حسابه فيعرض عليه عمله فينظر في صحيفته، فأول ما يرى سيئاته فيتغير لذلك لونه وترتعد فرائصه وتفزع نفسه. ثم يرى حسناته فتقر عينه وتسر نفسه، وتفرح روحه، ثم ينظر إلى ما أعطاه الله من الثواب، فيشتدّ فرحه. ثم (يؤتى) بالصحف التي فيها الأعمال التي لم يعملوها، قال: فيقرأها، فيقولون: وعزتك إنا لم نعمل منها شيئاً فيقول: صدقتم نويتموها فكتبناها لكم، ثم يثابون عليها**»[3].

---

(١) بحار الأنوار ٧٢: ٥١ و٧٠: ١٩٩.

(٢) بحار الأنوار ٧٢: ٥١ و٧٠: ١٩٩.

(٣) نور الثقلين ٣: ٢١٥.

وهذه كلها تجري بموجب ضوابط وقوانين وسنن إلهية وليس من دون حساب ولا نظام.

إنما الأعمال بالنيات

ولكي ندرك أهمية النية نعيد قراءة الحديث النبوي المعروف الذي رواه الفريقان عن رسول اللهصلى الله عليه وآله: «**إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى**».

وكلمة إنما للحصر ومعنى الحديث أنّ قيمة العمل بالنية فقط، فلو خرج إلى الجهاد بنية الغنيمة لا ينال الثواب.

وقد ورد الحديث في بعض طرقه بالألفاظ التالية: «إنّ رسول الله أغزى علياً في سرية وأمر المسلمين أن ينتدبوا معه. فقال رجل من الأنصار لأخ له: أغز بنا في سرية علي لعلنا نصيب خادماً أو دابة أو شيئاً نتبلّغ به. فبلغ النبيصلى الله عليه وآله قوله، فقالصلى الله عليه وآله: «**إنما الاعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى. فمن غزى ابتغاء ما عند الله، فقد وقع أجره على الله عز وجل، ومن غزى يريد غرض الدنيا أو نوى عقاراً لم يكن له إلا ما نوى**».

بالنية يخلد الإنسان في الجنة والنار

عن الإمام الصادقعليه السلام «**إنما خلد أهل النار في النار لأن**

نياتهم كانت في الدنيا أن لو خلدوا فيها أن يعصوا الله أبداً، وإنما خلد أهل الجنة في الجنة لأن نياتهم كانت في الدنيا أن لو بقوا فيها أن يطيعوا الله. فبالنيّات خلد هؤلاء، ثم تلا قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾»[1].

يحشر الإنسان على نيته

ونية الإنسان هي عاقبة الإنسان وآخر أطوار وجوده في الآخرة.

عن الصادق عليه السلام: «**إن الله يحشر الناس على نيّاتهم يوم القيامة**»[2].

النيَة أفضل من العمل

روى ثقة الإسلام الكليني في (الكافي) كتاب الإيمان والكفر باب النيّة: «**نيّة المؤمن خير من عمله**»[3].

وقد ذكر الشيخ جعفر الكبير صاحب كشف الغطاء، في كتابه كشف الغطاء وجوهاً في تفسير هذا الحديث، نذكرها بتصرف

(١) وسائل الشيعة الباب ٦ من أبواب استحباب نية الخير والعزم عليه ١٠: ٩.

(٢) وسائل الشيعة الباب ٥ من أبواب وجوب النية في العبادات ١٠: ٧.

(٣) الكافي ٣: ٢٦ ح ٤.

وتوضيح:

١ ـ إن الخير ليس بمعنى (أفعل التفضيل) بل بمعنى غير تفصيلي وهو الخير كما تقول الثمرة خير، الصدقة خير، المال خير، ومن للتبعيض، والمعنى إن النيّة من خيار أعمال الإنسان، ومن أعمال الإنسان الخيرة الصالحة.

٢ ـ إن النية في الأعمال الشاقة تتطلب مشقة كبيرة. وأصل المشقة في النية والاختيار، فإذا نوى الإنسان وعزم واختار يهون عليه الباقي كالجهاد مثلاً. فإنّ الصعب هو القرار.

عن الإمام الصادق عليه السلام: «**ما ضعف بدن عما قويت عليه النيّة**» وهذه حقيقة مهمة. إذن النية في مثل هذه الأعمال يعني القرار وهو أفضل من أصل العمل.

٣ ـ نسبة العمل إلى النية كنسبة الجسم إلى الروح. وكما أنّ قيمة الجسم بالروح، كذلك قيمة العبادة بالنية، والصلاة والسجود من غير النية لا قيمة لها، وإنما قيمتها في الخشوع والإقبال على الله وهي أمور نفسية. يقول الله: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي**﴾ فإنّ الذكر الذي هو كل قيمة الصلاة حالة نفسية.

وليس معنى هذه الرواية إن الصلاة من غير النية لها قيمة. كلا، إنما معنى الحديث إن الثواب إذا توزع على النية والعمل

كان حظّ النية أكثر.

وليست الرواية واردة مورد المبالغة. فقد نزل في تصدق علي عليه السلام بخاتمه في كتاب الله: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾.

ونزل في أهل البيت عليهم السلام عندما تصدقوا بطعامهم للمسكين واليتيم والأسير:

﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا**﴾.

وليس هذه القيمة الكبيرة والفضل العظيم الذي جعله الله تعالى لهذا العمل وذاك حتى نزل فيهما آيات من القرآن لحجم العمل المادي وإنما للنية الخالصة والصافية التي كان يختزنها هذا العمل وذاك[1].

والتوجيه الذي أرجحه لهذه الرواية: إن هذه القضية من نوع القضايا (الغالبية) وليست من القضايا (الكلية) بمعنى أن العمل في الغالب تشوبه شوائب العجب والرياء، وتسلم النية في الغالب من شوائب الرياء، ولذلك كانت النية قبل العمل، والنية التي لا

(١) انتهى كلام صاحب كشف الغطاء بتصرف وتوضيح.

تدخل حيز العمل بسبب من الأسباب أفضل من العمل بسبب خلوص النية وما يشوب العمل من شوائب العجب والرياء.

لا تكفي النية وحدها

هناك مقولة عامية في الانتقاص من قيمة العمل: إن الإنسان إذا طهر قلبه وصفت نيته يغنيه ذاك عن العمل..

وهذه المقالة مغالطة ظاهرة، فإنّ النية الصادقة لا تنفصل عن العمل بالمقدار الممكن الميسور لصاحبه.

إن نية الإنفاق لا تنفصل عن الإنفاق بالممكن الميسور، ونية الإقبال على الله لا تنفصل عن الصلاة والدعاء والحج، وأما النية المجردة عن العمل فهي هباء ووهم ما لم يتعذر العمل على صاحبه مطلقاً، وهو أمر نادر جداً.

ويبقى دائماً العمل دليلاً على صدق النية وانقطاع النية عن العمل أمارة ضحالة النية، كما أنّ انقطاع العمل عن النيّة دليل سقوط قيمة العمل.

بل النية المنقطعة عن العمل هي رغبة، ولا تزيد عليها، وهي رغبة ضحلة، إذ لو كانت رغبة عميقة لم تنفك عن العمل.

٣ـ الشاكلة

وردت هذه الكلمة في القرآن: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾[1]، وفسّروا الشاكلة بالنية، ووجه تسمية النيّة بالشاكلة إنّ النية شاكلة للعمل، والعمل على شكل النية ومن سنخها وكل عمل يصدر عن صاحبه على شاكلة نيته.. وبين عمل الإنسان ونيته شاكلة سنخية، وهو صحيح.

الشاكلة الأولى والشاكلة الثانية

إلا إنّ هذه الشاكلة هي الشاكلة الأولى، وهي المشاكلة بين العمل والنية، والشاكلة الثانية هي باطن الإنسان وجوهر نفسه وسجيته وخلقه.

فإن نية الإنسان تأتي على شاكلة نفسه وسجاياه النفسية.

هناك مشاكلة وسنخية واضحة بين عمل الإنسان ونيته، وهناك مشاكلة واضحة بين نيته ونفسه حُبّاً وبغضاً، ورضاً وسخطاً، وإقبالاً وإعراضاً.

ومشاكلة واضحة بين نفسية الصديق المحب المتعاطف ونيته، وبين نيته وعمله.

(١) الإسراء: ٨٤.

وبين نفسية الإنسان المتدين ونيته، وبين نيته وعمله، وبين نفسية الإنسان الفاسق ونيته وبين نيته وعمله، وبين الأم ونيتها تجاه أولادها، والأخ ونيّته تجاه أخيه... وهكذا.

هذه السجايا المختمرة في نفس الإنسان هي على شاكلة النية، كما إن النية على شاكلة العمل.

والنية الشاكلة الأولى للعمل، والسجايا الكامنة في النفس الشاكلة الثانية للعمل. يقول تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾.

أعلى مراتب الإخلاص

أعلى درجات الإخلاص أن يعمل الإنسان العمل لله تعالى، وحبّاً له، وابتغاءً لمرضاته، وليس ابتغاءً للثواب، ولا فراراً من العقاب والعذاب.

وابتغاء الثواب، أو الحذر من العقاب والعذاب في العمل، لا يبطلان العمل، بل يتقبّله الله تعالى بفضله، ويثيب عليه، ويدفع عن صاحبه العذاب والعقاب. ولكنه لا يخلو عن شوب الذات.

فإن الإنسان في هذه الحالة يريد الثواب لنفسه كما يريد بالعمل أن يدفع العذاب عن نفسه.. ومنهما تفوح رائحة الذات.

وأما الإخلاص النقي الصافي الذي لا تشوبه الذات، ولا يجد فيه الإنسان غير الله، هو العمل الذي يأتي به الإنسان لله تعالى، وابتغاء وجهه الكريم وحباً له، وطلباً لمرضاته، وهو معنى قوله تعالى: ﴿**أَلا لِلَّه الدِّينُ الْخَالِصُ**﴾[1]. في مثل هذه الحالة يعني لا يطلب الإنسان في عمله غير مرضاة الله.

ولا شك إنّ ابتغاء الثواب واجتناب العقاب لا يبطلان العمل، ولكنهما لا يحققان لصاحبهما أعلى معارج الإخلاص والقرب والكمال.

عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «**إن العبادة ثلاثة: قوم عبدوا الله عز وجل خوفاً منه، فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله طلب الثواب، فتلك عبادة الأُجراء، وقوم عبدوا الله حُبّاً، فتلك عبادة الأحرار**»، يعني الذين تحرروا عن ذواتهم مطلقاً، ولم يفكروا إلا بمرضاة الله ولا يحكمهم إلا حب الله.

وعن علي بن الحسين عليهما السلام: «**إني أكره أن أعبد الله ولا غرض لي إلا ثوابه، فأكون كالعبد الطمع المطمع، إن طمع عمل، وإلا لم يعمل، وأكره أن (لا) أعبده إلا لخوف عقابه فأكون كالعبد**

(١) الزمر: ٣.

السوء إن لم يخف لم يعمل.

قيل: فلم تعبده؟ قال: **لما هو أهله بأياديه عليّ وإنعامه**»[1].

الإبقاء على الإخلاص

الإخلاص حالة نفسية رقيقة، سريعة التأثر بعوامل (الأنا) و(الهوى) و(الفتن). وعلى صاحبه أن يتعهد صيانته وحفظه ووقايته من الأعراض التي تصيب الإخلاص وتفتك به.

ولكي يحفظ الإنسان حالة الإخلاص في نفسه من هذه الأعراض لابد له من مراقبة مستمرة لتسلم للإنسان هذه الحالة الشريفة في نفسه.

وكما أنّ سلامة الجسد تحتاج إلى مراقبة ووقاية مستمرة، كذلك سلامة النفس تحتاج إلى مراقبة دائمة، وقد تذهب غفلة من غفلات الإنسان بجهد كثير بذله الإنسان لكسب خصلة من هذه الخصال الشريفة التي أعدّ الله تعالى لها نفس الإنسان.

ولذلك فكما يجب على الإنسان أن يسعى لتحصيل الإخلاص كذلك يجب عليه أن يسعى للإبقاء عليه.

وقد يصدر العمل من صاحبه خالصاً لله، وحده لا شريك له،

(١) بحار الأنوار ٦٧: ٢١٠.

لا يبتغي فيه مرضاة أحد إلا الله، ولا يعلم شماله بما أنفقت يمينه، فيكتب له العمل في ديوان السرّ، وهو ديوان الأعمال الخالصة النقية من كل شوب وكدر.

ثم يذكره الإنسان بعد أن أنفذه وعمل به، فيمحي العمل من ديوان السرّ، ويدخل في ديوان الإعلان للأعمال الصالحة، وهو دون الديوان الأول، ثم لا يزال يذكره ويذكّر به، ويتحدث عنه، حتى يمحى من ديوان الأعمال الصالحة، ويكتب رياءً، فتنقلب الأعمال من الإخلاص إلى الرياء، وهو من أبوب الشرك.

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «**الإبقاء على العمل أشدّ من العمل.** فقيل: وما الإبقاء على العمل؟ قال: **يصل الرجل بصلة، وينفق بنفقة لله وحده لا شريك له، فيكتب له سرّاً، ثم يذكرها، فتمحى، ويكتب له رياءً**»[1].

ﮦﮧ

(١) أصول الكافي كتاب الإيمان والكفر باب الرياء ح ١٦.

بركات الإخلاص

للإخلاص بركات عظيمة كثيرة في حياة الإنسان.

ومن أعظم هذه البركات: إنّ الإخلاص يفجر ينابيع الحكمة والمعرفة في قلب الإنسان على لسانه... وقد ورد هذا التعبير في روايات كثيرة.

ففي عيون أخبار الرضا عليه السلام، قال: حدثنا علي بن موسى الرضا عليه السلام عن أبيه، عن جده، عن محمد بن علي، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله، عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**ما أخلص عبد لله أربعين صباحاً إلا جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه**»[1].

وروى ابن فهد الحلي رحمه الله في عدة الداعي مرسلاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**من أخلص لله أربعين يوماً فجر الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه**»[2].

وروى ثقة الإسلام الكليني في أصول الكافي عن ابن عيينة السندي عن أبي جعفر عليه السلام: «**ما أخلص عبد الإيمان بالله أربعين**

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢٥٨.
(٢) عدة الداعي: ١٧٠.

يوماً (أو قال: **ما أجمل ذكر الله أربعين يوماً) إلا زهّده الله في الدنيا، وبصّره داءها ودواءها، وأنبت الحكمة في قلبه، وانطق بها لسانه**»[1].

وروى الغزالي في (إحياء العلوم) عن رسول الله ﷺ: «**ما من عبد يخلص لله العمل أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه**»[2].

والروايات بهذا المضمون كثيرة رواها الفريقان عن رسول الله ﷺ.

والتعابير الواردة في النصوص تلفت النظر وتفتح على الإنسان آفاقاً من التأمل والتفكير لا يسعنا أن نتوقف عندها هنا في هذه المقالة.

فالإخلاص يُفجّر ينابيع الحكمة في القلب وتجري الحكمة من قلب صاحب الإخلاص على لسانه، وينبت الله الحكمة في قلب المخلصين.

وهي كلمات معبرة عن معاني عميقة.

فإن كلمة التفجير تستعمل في الأراضي التي تختزن كمية

---

(١) أصول الكافي ٢: ١٦.

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي ٤: ٣٢٢.

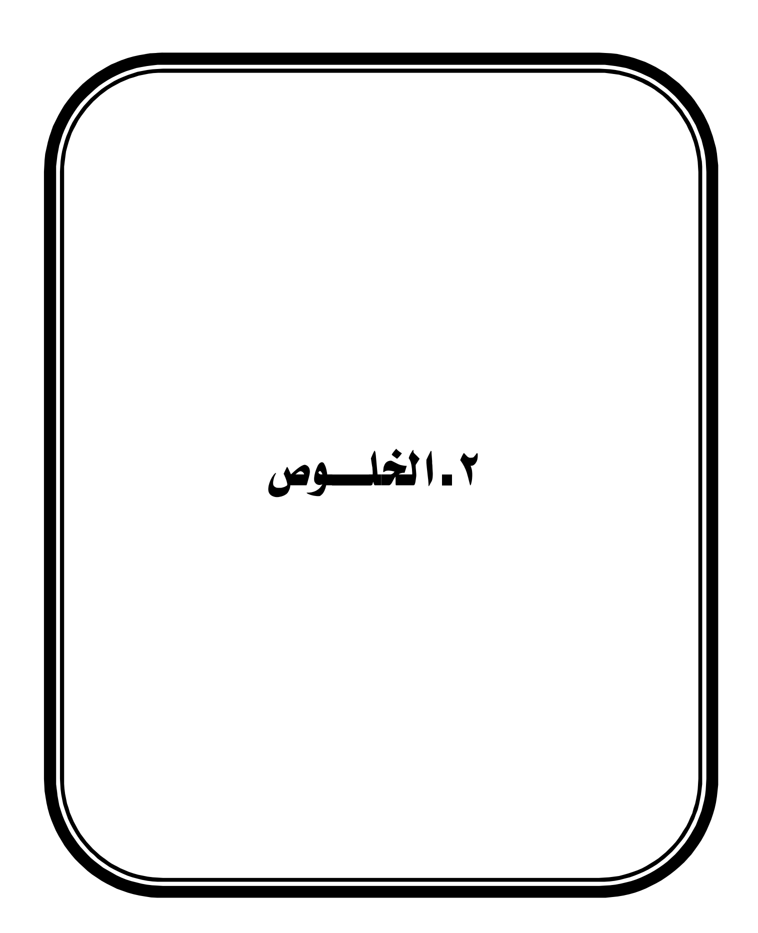
كبيرة من المياه الجوفية الضاغطة باتجاه سطح الأرض.

فإذا جرى عليها حفر ونقب تفجرت الأرض بينابيع الماء، وتدفقت المياه العذبة على وجه الأرض، واخضرّ واعشوشب بها وجه الأرض.

كذلك القلوب تختزن الحكمة بإيداع من الله تعالى بكميات كبيرة.. وعامل التفجير في القلوب لهذه الحكمة المخزونة هو الإخلاص، والتوحيد، يفجرها تفجيراً.

كما أن عامل النضوب وجفاف القلوب من الحكمة، الرياء والشرك، فإنّه يؤدي إلى نضوب القلوب وجفافها من الحكمة.

فإذا أخلص الإنسان لله تفجرت الحكمة في قلبه، وجرت الحكمة من قلبه على لسانه، كما يجري الماء من العيون على الأرض، فيتدفق عليها، فتخضرّ الأرض وتنبت، وكذلك القلوب تتدفق بالحكمة، وتخضرّ، وتنبت، وتعطي ثماراً طيبة مباركة من الحكم والبصائر والمعارف.



٢. الخلــوص

الإخلاص على نحوين:

إخلاص العمل والدين لله.

وإخلاص القلب والنفس لله تعالى.

ونصطلح على الأول منهما باسم (الإخلاص)، يعني إخلاص العمل والدين لله تعالى، ونصطلح على المعنى الثاني باسم (الخلوص)، يعني خلوص القلب لله تعالى.

ويشير إلى الأول منهما قوله تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إلاّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾[1] (بكسر اللام لكلمة مَخلصِين)، يعني من أخلَصَ دينه وعمله لله.

وإلى الثاني تشير الآية الكريمة: ﴿**إلاّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ**﴾[2]، (بفتح اللام لكلمة المخلَصين) يعني: الذين خلصت قلوبهم لله، فهم مُخْلَصون، (على صيغة المبني للمفعول).

والأول منهما من شروط الإيمان، ومن دونه تبطل العبادات، والثاني منهما من أعلى مراتب الإيمان. وبه يتكامل الإنسان في

---

(١) البيّنة: ٥.

(٢) الصّافات: ٤٠، ٤٧، ١٢٨، ١٦٠.

معارج الكمال والقرب إلى الله، ونصطلح عليه بالخلوص، أي خلوص القلوب والنفس من كل شائبة غير وجه الله وحبه ومرضاته، وهو أمر آخر غير خلوص العمل والدين.

والأول هو الطريق إلى الثاني، ومن دون أن يبدأ الإنسان بالإخلاص في الدين والعمل لا ينتهي إلى الخلوص.

القلب السليم

ومعنى الخلوص هو سلامة القلب من كل مراتب الشرك الجلية الظاهرة، والخفية الكامنة. والقلب الذي يتنزه ويخلص من كل شوب في التوحيد، ويسلم من كل شيء غير الله، إلا أن يكون في امتداد الله تعالى، هو القلب المُخْلص، الذي أخلصه صاحبه لله تعالى، فهو مُخْلَص لله (بصيغة المبني للمفعول).

وهذا هو القلب السليم.

والشرك الذي يخالج قلب الإنسان هو المرض، بكل مراتبه ودرجاته، ولا يسلم القلب من الأمراض إلاّ إذا سلم من كل مراتب الشرك.

عن الصادقعليه السلام: «**صاحب النية الصادقة صاحب القلب السليم لأن سلامة القلب من هواجس المحذورات بتخليص النية**

لله في الأمور كلها»[١].

وعن سفيان بن عيينة عن أبي عبد الله الصادقعليه السلام، قال: سألته عن قول الله عزّوجلّ: ﴿**إلاّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾. قال: «**القلب السليم الذي يلقى ربه، وليس فيه أحد سواه. قال: وكل قلب فيه شرك وشك فهو ساقط، وإنما أرادوا الزهد في الدنيا لتفرغ قلوبهم للآخرة**».

وفي هذا النص القلب السليم هو الذي يسلم من الشرك والشك.

والشرك والشك حالتان من حالات سقوط القلب. الشك يمسّ الإيمان والشرك يمسّ الطاعة والعبادة.

وللشرك مراتب ومستويات، كما إن للشك مراتب ودرجات.

مراتب الشرك

أكثر أنواع الشرك ثلاثة:

الشرك في العبادة، والشرك في الطاعة، والشرك في الاستعانة.. وهناك أنواع أخرى من الشرك أخفى من هذه الثلاثة، ونقتصر هنا على هذه الثلاثة التي هي أبرز أنواع الشرك.

(١) بحار الأنوار ٦٧: ٢١٠.

الشرك في العبادة

وأظهر الشرك: (الشرك في العبادة) وهو أن يُشْرك الإنسان في عباداته فيعبد غير الله، كما في الوثنيين، فإنهم يعبدون الأوثان مع الله، أو من دون الله، يصلون للوثن، ويسجدون له، ويحمدونه ويسبحونه.

وهذا من أبرز أنواع الشرك. ولا يعتقد هؤلاء في الأوثان أنهم قد خلقوا الأرض والسماء، ولكنهم يعتقدون أنهم يقربونهم إلى الله زلفى، ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى**﴾[1].. وقد حاربها الإسلام محاربة لا هوادة فيها.

الشرك في الطاعة

والنوع الآخر من الشرك الشرك في الطاعة.

وهذا أخفى من النوع الأول، وأكثر شيوعاً وانتشاراً منه.

فإن الإسلام خصّ الطاعة لله، ولا طاعة لغير الله، إلاّ في امتداد طاعة الله، مثل طاعة الرسول وأولي الأمر، فإنّهما في امتداد طاعة الله، وبأمر من الله، يقول تعالى: ﴿**أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾.

(١) الزمر: ٣.

وكل طاعة وانقياد وتسليم لغير الله من دون إذن الله وأمره فهو من الشرك بدرجة من الدرجات.

ومن ذلك طاعة الشيطان في معصية الله. فإنه من الشرك.. وطاعة الشيطان عبادة للشيطان. يقول تعالى ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾[1].

والمقصود بعبادة الشيطان في آية سورة (يس) هو طاعة الشيطان، يعتبرها القرآن عبادة للشيطان.

ومن يطع هواه في معصية الله، فقد اتخذه إلهاً، يعبده من دون الله.

﴿**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾[2].

وعلى الإجمال، طاعة الله تعالى هي الطاعة الحاكمة في الكون على كل طاعة، ولا طاعة لأحد على الآخر إلا بإذن الله، ولا يجوز طاعة أحد من دون إذن الله وأمره.

عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ**﴾[3]. قال عليه السلام: «**يطيع الشيطان من حيث لا يعلم**

(١) يس: ٦٠.

(٢) الفرقان: ٤٣.

(٣) يوسف: ١٠٦.

فيشرك».

وروى ضريس في تفسير هذه الآية من سورة يوسف عن الإمام الصادق عليه السلام: **«شرك طاعة، وليس شرك عبادة».**

وهذا نحو من الشرك الخفي أن يشرك الإنسان في الطاعة فيطيع غير الله، ويلتزم بطاعته في الحلال والحرام على نحو سواء.

وهذا هو الشرك الذي يمقته الله أشد المقت.

ومن ذلك طاعة الهوى.

ومن ذلك طاعة الطاغوت في الحلال والحرام، وقد أمرنا الله تعالى أن نكفر به **﴿وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ﴾**[1]، وأمرنا الله أن نجتنبه ونحذره على أنفسنا **﴿أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾**[2].

وطاعة الطاغوت هي الانقياد له في الحلال والحرام، دون الله تعالى، وهو من أنحاء الشرك.

روى عدي بن حاتم، قال: أتيت النبي صلى الله عليه وآله وفي عنقي صليب من ذهب، فقال صلى الله عليه وآله: **«ما هذا يا عدي، أخرج عنك هذا الوثن،** وسمعته يقرأ: **﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ**

(١) النساء: ٦٠.

(٢) النحل: ٣٦.

وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾.

وقال صلى الله عليه وآله: **أما أنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرموه»**[1].

وعن أبي بصير، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّوجلّ: **﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ﴾**، فقال: **أما والله ما دعوهم إلى عبادة أنفسهم، ولو دعوهم إلى عبادة أنفسهم لما أجابوهم، ولكن أحلّوا لهم حراماً، وحرّموا عليهم حلال، فعبدوهم من حيث لا يشعرون»**[2].

وعن ابن أبي عمير، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: **«من أطاع رجلاً في معصية فقد عبده»**[3].

وعن الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام:

«من أصغى إلى ناطق فقد عبده. فإن كان الناطق عن الله فقد عبد الله، وإن كان الناطق ينطق عن لسان إبليس فقد عبد إبليس»[4].

(١) تفسير القرطبي ٨: ١٢٠.

(٢) أصول الكافي كتاب الإيمان والكفر، باب الشرك: ح ٧.

(٣) وسائل الشيعة ٢٧: ١٢٤، ١٤٣.

(٤) تحف العقول لحسن بن علي بن شعبة: ٤٥٥. ووسائل الشيعة ١٦: ١٤٧، ١٦٣ و١٧: ١٤٨ ـ ١٦٧ ـ ٣٠٩ ـ ٣٢٨ و٢٧: ١٢٤ ـ ١٤٣. مستدرك الوسائل ١٧: ٢٤٢.

وهو معنى دقيق: أن يصغي إلى أحد مهما كان، ويأخذ بكلامه، ويلتزم به، ويطيعه، فقد عبد صاحب الكلام والذي أوحى إليه به، فإن كان قائل هو الله تعالى فقد عبد الله، وإن كان الشيطان قد أوحى به إلى أوليائه، فقد عبد الشيطان.. فإن الإصغاء والالتزام والطاعة من العبادة.

وقد تواتر نقل هذا الحديث وما بمضمونه عن رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام.

وروي عن أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**من قضى حق من لا يقضى حقه، فقد عبده**»[1].

إذن الطاعة المطلقة لله تعالى، وليس لغير الله تعالى طاعة إلا فيما أمره به الله أو أذن به. وكل طاعة لغير الله من دون هذا ولا ذاك فهو من الشرك.

الشرك في الاستعانة

وهو أخفى أنواع الشرك.

وكثيراً ما يقع الناس في التعامل مع الأشخاص والأشياء في الشرك في الاستعانة من حيث لا يعلمون.

(١) خصائص الأئمة ١٠٨ و١٢٦.

وذلك عندما يضع الإنسان اعتماده في الأشخاص والأشياء، من دون الله، على أنها هي التي تغنيه وتكفيه.. وهذه هي الاستعانة بغير الله التي هي نحو من أنحاء الشرك.

وأما إذا استخدم الإنسان الأشخاص والأشياء على أنها أدوات خلقها الله تعالى، وسخّرها له لخدمته فهو من الاستعانة بالله واستخدام الأسباب، وليس من الشرك في شيء.

يقول تعالى: ﴿**وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ**﴾[1].

﴿**اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**﴾[2].

﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ**﴾[3].

أقول: إذا وعى الإنسان هذه الحقيقة التوحيدية الكبرى وهي: إنّ الله خلق هذا الخلق، ومكّن الإنسان منه، وسخّره للإنسان

(١) الرحمن: ١٠.

(٢) إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٤.

(٣) الحج: ٦٥.

لتخدمه.. عندئذ يعرف أنّ استخدام ما على وجه الأرض من الإنسان والحيوان والنبات والجماد من الاستعانة بالله تعالى فحسب.. وأن كل استخدام لسبب من الأسباب التي وضعها الله تعالى وسخرها للإنسان هو من الاستعانة بالله.. وهذا هو محض التوحيد، ودرجة رفيعة من درجات التوحيد.

وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ من سورة الحمد، التي لا تصح الصلاة من دونها. وقد ذكر علماء العربية أن تقديم المفعول على الفعل كما في هذه الآية: ﴿**إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ إمارة الحصر... فيكون معنى الآية الكريمة حصر الاستعانة بالله تعالى، وهو معنى (توحيد الاستعانة).

ومن استخدم هذه الأسباب والآلات مستعيناً بها معتمداً عليها، مستغنياً، ومكتفياً بها، غير واع للحقيقة التوحيدية المتقدمة، فهو من الذين استعان بغير الله، وذلك من أقسام الشرك الخفي الذي يخفى على كثير من الموحّدين.

فإن الشرك دقيق، ويزحف إلى نفس الإنسان بهدوء وصمت.

عن الإمام علي بن محمد الهادي عليه السلام: «**الإشراك في الناس أخفى من دبيب النمل على المسح الأسود في الليلة المظلمة**»[1].

(١) تحف العقول: ٤٨٧.

وروى أحمد بن فهد في (عدة الداعي) قال: روي عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّوجلّ: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ**﴾، قال: «**هو قول الرجل: لولا فلان لهلكت، ولولا فلان ما أَصبت كذا وكذا، ولولا فلان لضاع عيالي، ألا ترى أنه قد جعل الله شريكاً في ملكه يرزقه ويدفع عنه**». قلت: فيقول ماذا، يقول: لولا أن منّ الله عليّ بفلان لهلكت؟

قال: **نعم، لا بأس بهذا أو نحوه**».

وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إن الشرك أخفى من دبيب النمل. قال: ومنه تحويل الخاتم ليذكر الحاجة وشبه هذا**»[1].

ومعنى الرواية: أن يضع الإنسان ثقته واعتماده في هذه العلامة المذكرة ويكتفي بها، ويستغني بها ـ ويستعين بها ـ وتغيب عنه الحقيقة التوحيدية المتقدمة في أن الله تعالى سخّر له هذه العلامة وشبهها للتذكير والتنبيه، ويغفل عنها.. وهذه غاية في الدقة في تحديد الشرك ومعرفته للحذر منه.

وهذا هو الشرك الخفي الذي يخالط عمل الإنسان، وتعامله مع الأشياء والأشخاص.

(١) وسائل الشيعة ٥: ٧٥ ـ ١٠٠.

بركات الإخلاص

إن للإخلاص والخلوص بركات عظيمة وكثيرة في حياة الإنسان. وها أنا أتحدث إن شاء الله عن كل من بركات الإخلاص والخلوص.. وأبدأ بالحديث عن بركات الإخلاص.

عن رسول الله ﷺ: «**ما من عبد اخلص لله أربعين صباحاً إلا جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه**».

رواها الصدوق في عيون أخبار الرضا ٢٥٨ وابن فهد الحلي في عدة الداعي ١٧٠ والكليني في الكافي ٢: ١٦ والمجلسي في بحار الأنوار ١٥: ٨٥ بألفاظ متقاربة.

وقد روى ابن فهد الحلي الرواية مرسلة عن رسول الله ﷺ باللفظ التالي: «**من خلص لله اربعين يوماً فجّر الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه**».

وهي تناسب (الخلوص).

ورواها الغزالي في إحياء علوم الدين ٤: ٣٢٢ باللفظ التالي، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من عبد يخلص لله العمل اربعين يوماً إلاّ ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه**».

وأخرج الرواية آخرون من المحدثين من الفريقين بألفاظ

قريبة من هذا اللفظ.

ولاشكّ أن لعدد الأربعين اثر خاص في تكامل الإنسان، ولسنا الآن بصدد الحديث عن خصوصية هذا العدد في كمال الإنسان.

ونستفيد من هذه المجموعة من الروايات: إنّ الله تعالى أودع في قلب الإنسان كنوزاً من المعرفة والحكمة، وهذه الكنوز كأيّ كنز آخر لا تنفع الإنسان إلاّ إذا فجّرها صاحبها واستخرج منها المعرفة والحكمة والبصائر.

ولاشكّ أنّ (التقوى) من أهم أدوات هذا التفجير وأسباب النيل من هذه الكنوز. ومن يتقي الله تعالى يرزقه الله النيل من كنوز المعرفة في صدره وقلبه، ويفجّرها له، ويرزقه نوراً وفرقاناً يعرف بها الحق عن الباطل.

يقول تعالى: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ**﴾[1].

ولا شك إن الفرقان بين الحق والباطل والهدى والضلال من أبرز مصاديق المعرفة والحكمة.

ويقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِه**

---

(١) الأنفال: ٢٩.

يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

وهذا النور أيضا من مصاديق الحكمة البارزة.

كما إنّ الإخلاص في العمل لله تعالى يفجّر ينابيع الحكمة في قلب الإنسان على لسانه، كما وردت به الروايات المستفيضة عن رسول الله ﷺ.

ومن الناس من يحمل في قلبه وصدره كنوز المعرفة والحكمة دون أن يهتدي إلى استخراجه والإفادة منها.

ومثل هؤلاء مثل الدابة تحمل على ظهرها الماء في الصحراء القاحلة وتموت عطشاً.

ومن الناس من يطمر هذه الكنوز في قلبه وصدره، ويجفف منابعها، ويهدمها ويعدمها في نفسه بالذنوب، والآثام، والمعاصي، والظلم، والشرك.. وأولئك شر الناس، وأضلّ من الدواب.

بركات الخلوص في حياة الإنسان:

الخلوص بهذا المعنى من الدرجات الرفيعة للتوحيد، ولا ينالها من عباد الله إلا ذو حظ عظيم، وما لم يبلغ الإنسان هذه

(١) الحديد: ٢٨.

المرحلة الرفيعة من الخلوص والتوحيد لم يسلم من الشرك بشكل مطلق.

يقول تعالى: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ**﴾.

وهذا الشرك الذي ينسبه الله تعالى إلى المؤمنين الموحدين هو هذا الشرك الخفي الذي تحدثنا عنه، وعبّر عنه الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية بأنه أخفى من دبيب النمل.

وللخلوص بهذا المعنى بركات عظيمة في حياة الإنسان يذكرها القرآن[1].

ومن هذه البركات أنهم لا يحضرون للحساب، عندما يحضر الله عباده جميعاً للحساب.

يقول تعالى: ﴿**فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ**﴾[2].

فقد خلصوا هؤلاء من كل شوائب الشرك، وخلصت قلوبهم من كل درجات الشرك، حتى ممّا كان أخفى من دبيب النمل، فليس عليهم من حساب يومئذ... هذا أولاً.

(١) أوردها السيد مهدي بحر العلوم رحمه الله في رسالته المعروفة بالسير والسلوك (الرسالة منسوبة إليه). وقد صحح نسبة هذه الرسالة إليه جمع من أهل المعرفة والسلوك.

(٢) الصافات: ١٢٧ ـ ١٢٨.

وثانياً: إن كل ما يرزق الله عباده من النعيم في الجنة يتناسب مع أعمالهم، وليس أقول يساوي أعمالهم، فيثيبهم الله بأعمالهم، ويرفعهم في درجات الجنة بمقتضى أعمالهم.. إلاّ المخلَصين (بفتح اللام) فإن الله تعالى يعطيهم بمقاييس وموازين أخرى غير مقاييس أعمالهم وموازينها.. وهو ما يخفى على تصوراتنا المحدودة في هذه الدنيا.

يقول تعالى: ﴿**وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِلاّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ**﴾[1].

وثالثاً: إن هؤلاء المخلَصين (بفتح اللام) يتمكنون فقط من دون سائر عباد الله أن يصفوا جلال الله وجماله تعالى عن وعي ومعرفة صحيحة، وأما سائر الناس فإن وصفهم لله ومعرفتهم لله يشوبه الكثير مما يتنزه عنه الله تعالى.

يقول تعالى: ﴿**سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلاّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ**﴾[2].

ورابعاً: يتحرر أصحاب الخلوص من كل سلطان للشيطان،

(١) الصافات ٣٩ ـ ٤٠.

(٢) الصافات: ١٥٩ ـ ١٦٠.

بشكل مطلق، فلا يتمكن الشيطان أن يقرب منهم، ولا يبقى له مطمع فيهم على الإطلاق..

وإنما سلطان الشيطان على الناس بقدر ما يشوب قلوبهم من الشرك. فمن يطهر قلبه ويخلص عن كل شوائب الشرك، فلا يبقى للشيطان سلطان على قلبه إطلاقاً.

قال تعالى: ﴿**وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾[1].

وقال تعالى: ﴿**قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾[2].

(١) الحجر: ٣٩ ـ ٤٠.

(٢) ص: ٨٢ ـ ٨٣.

الفهرس